يوميات نائب في الأرياف

للأستاذ توفيق الحكيم

« لماذا أدون حياتي في يوميات ؟ ألأنها حياة هنيئة ؟ كلا ! إن صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، إنما يحياها . إني أعيش مع الجريمة في أصفاد واحدة . إنها رفيق وزوجي أطالع وجهها في كل يوم ، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد . هنا في هذه اليوميات أملك الكلام عنها ، وعن نفسي ، وعن الكائنات جميعاً . أيتها الصفحات التي لن تنشر ! ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطل منها حريتي في ساعات الضيق ! »

١١ اكتوبر سنة . .

آويت إلى فراشي البارحة مبكرا ؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق ، وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين . فعصبت على رقبتي خرقة من الصوف ، وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد النفيران الثلاث ، ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر ، وأطفأت مصباح النفط وأغمضت عيني وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية في هذا « المركز » بضع ساعات ، فلا تحدث جناية تستوجب قيامي ليلا وأنا على هذه الحال . فلم أكد أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجرا ملقى ، إلى أن حركني صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديدا ، وينادي خادمي صائحاً : « اصح يادسوقي ! » فعلمت أن جناية وقعت ،

وأن الغرائز لم تنم لأني أردت أنا أن أنام . فنهضت لوقتي وأشعلت المصباح ، ودخل عليّ خادمي يفرك عينيه بيد ويقدم إليّ بالأخرى (اشارة تلفونية) ، فأدنيت الورقة من الضوء وقرأت : « الليلة ؛ الساعة ٨ مساء ، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على الجسر بالقرب من « داير » الناحية أطلق عليه عيار نارى من زراعة قصب ، والفاعل مجهول ، وبسؤال المصاب لم يعط منطقاً وحالته سيئة ، لزم الاخطار »

« العمدة »

فقلت في نفسي : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة تستغرق مني على الأكثر ساعتين ؛ فالضارب مجهول ، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ، والشهود ولا ريب : الخفير النظامي الذي سمع صوت العيار فذهب إليه خائفاً متباطئاً فلم يجد بالطبع أحداً في انتظاره غير الجثة الطريحة ، والعمدة الذي سيزعم لي خائفاً بالطلاق أن الجاني ليس من أهل الناحية ، ثم أهل المجني عليه الذين سيكتمون عني كل شيء

ليثأروا لأنفسهم بأيديهم . فسألت خادمى عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة : « وردت الساعة العاشرة ، وقائمون لضبط الواقعة » وقمت من فورى إلى ثيابى فارتديتها على عجل كما يصنع رجال المطافىء ، وأرسلت فى طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأوفدت من يوقظ مساعدى الجديد وهو شاب رقيق الحاشية حديث عهد بالعمل ، كان قد أوصانى أن أستصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران . ولم ألبث أن سمعت ببابى بوق سيارة المركز « البوكس فورد » بها المأمور ومعاون الأدارة وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت كل شىء قد أعد ولا ينقصنا الا كاتب التحقيق ، فلم أعجب . لأنى ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ، فى أى بلد كان ، وفى أى مركز . والتفت إلى الخفير وقلت : « أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ » فسمعت فى الظلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض ، ولمحت يداً ترتفع بالتحية العسكرية فوق (اللبدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفماً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذنب القط : « لبس القميص قدامى يا سعادة البك : » . ورأينا أن ننطلق بسياراتنا فنمر بمنزل الكاتب فنستصحبه . فركبت أنا ومساعدى والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا منزلاً قديماً فى طرف البلدة . فصاح الخفير وكان قد تعلق بسلم السيارة ليدلنا على الطريق : « إنزل يا سعيد افندى . » فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو فى جلباب النوم : « حادثة ؟ » فصاح الخفير : « حادثة ضرب نار » . وما أشعر عندئذ إلا بيد المأمور قد خرجت من نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير : « يا خفير يا ابن ... لبس القميص قدامك يا ابن ال ... » . « وحياة رأس سعادة البك كان لابسه ... » . ولم أر ضرورة للتحقيق فى هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين : إما أن الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شىء غير مستغرب ، وإما أن سعيد افندى قد عاد فخلع قميصه ونام من جديد ، وهو شىء أيضاً غير مستغرب . وما دمت أنا وحدى المسئول رسمياً عن التأخير ، فلا نفع إذن من صياحى مع سعيد افندى غير تصديع رأسى ، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد والكلام للقضية الحقيقية التى من أجلها نتجشم ما نتجشم . ولم يلبث الفتور أن دب فى أعضائى ، فأسندت رأسى إلى ركن السيارة وقلت لمن معى : « محل الحادث على بعد ثلاثين كيلومترا ، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق » وأغمضت عينى ، وتحركت سيارتنا وخلفها « البوكس فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر . وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء فى جوف الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة فى الحال وصاح : يا حضرة المعاون : أسمينا الشيخ عصفور . ووقفت القافلة ؛ وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل « بوص » على حافة غيط :

. . . ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان . . .

فأسرع المعاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور . حادثة ! » فظهر ذلك الرجل العجيب الذى يهيم على وجهه بالليل والنهار ، لا يعرف النوم ، يغنى عين الأغنية ، ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات ، يصغى إليها الناس ؛ ذلك الرجل الذى لا يفرحه شىء مثل خروجه إلى الحوادث مع النيابة والبوليس ؛ فهو يسمع عن بعد بوق « البوكس فورد » ويتبعه

أينما ذهب كالكلب الذى يتبع سيده إلى الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت نفسى : ألا يكون لهذا الرجل سر ؟ . ودنا الرجل من « البوكس » قائلاً فى شبه احتجاج :

— كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسماً :

— أبداً : لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الأشارة

فقال الرجل :

— طيب . هات سيجارة

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له فى صوت خافض :

— اسكت ، يسمعك البك المأمور

فقال الشيخ عصفور :

— هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش ، لأنى أنا الليلة « باشخرمان »

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد إلى « رولز رويس » بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حمله فى يده كالصولجان . وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات ، إلا من نقيق الضفادع ، وهفيف الحشرات ، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس » . وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءتى التى اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة ، إغفاءة متقطعة لا تمنعنى أحياناً من سماع ما يدور حولى من الكلام . وكان مساعدى إلى يسارى متيقظاً يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شىء فيمنعه الخوف من إزعاجى . فالتفت إلى المأمور بجواره ؛ وسرعان ما اشتبكا فى حديث طويل لم أع منه شيئاً كثيراً ، فهو وحده الذى أنامنى النوم العميق طول الطريق ، وانتبهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير ، ففتحت عينى فاذا نحن أمام ترعة . . . . . وإذا « المعدية » فى انتظارنا لتنقلنا إلى الضفة الأخرى . فنزلنا جميعاً وامتلأ بنا القارب كأننا غرقى فى زورق النجاة ، أو « أزيار » من الفخار فى مركب بالصعيد . وسارت بنا « المعدية » حتى بلغت الشاطئ الآخر ونحن لا نسمع فى سكون الليل العميق غير سلاسلها تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . ولم تكد تطأ أقدامنا البر حتى سمعنا صهيل خيل ؛ وإذا أمامنا « الركايب » من خيول « نقطة البوليس » وحمير العمدة ، مهيأة لحملنا إلى مكان الحادث . وآه من الخيول ! لقد تقدم إلىّ أحد الجنود بجواد معلهم إجلالاً لقدرى . ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره ، ولا يصبر على الهدوء حتى أعتلى ظهره ، فعلمت أنى لا محالة واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التى لا يحكمها غير فارس بارع ، لا راكب نائم . ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة ؛ غير أنى نظرت خلفى فاذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول ولم تبق الحمير إلا للأوباش ؛ فخجلت أن أنزل عن جوادى وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور ، وقد اعتلى حماراً أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل الجياد . أسلمت أمرى لله ، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب ، إلى أن ظفر النوم بجفونى فلم أشعر بشىء . وفجأة وجدت جسمى قد طار من فوق الجواد ووقع على عنقه ! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة شديدة خلعتنى من فوق ظهره خلعاً . فقلت : « ما حسبناه لقيناه ! » وصحت بالخفير الملحق بركابى : « الحصان يا خفير ! الحصان ! » . فوقف الركب واختل

النظام ؛ وأوسع المأمور رجاله شتما وصفعاً وأمراً ونهياً . وأعادونى إلى ظهر جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى : يظهر أن الحصان نام وهو ماش ، أو خاف من ثعلب فارّ فجمح . على كل حال أمسك اللجام يا خفير . فأمسك خفيران اللجام ومشيا بى رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى نفسى هجوعها ، فلم أصح إلا فى مكان الواقعة . وأبصرت ضوء المصابيح والمشاعل فى أيدى الأهالى المجتمعين حول المصاب . . . فطار التعب من رأسى كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترب . وأسرعت فى النزول من فوق صهوة الجواد وشققت طريقا بين الناس الذين هتفوا فى صوت خافت : « النيابة حضرت » . ودنوت من ذلك الجسم الممدد على الأرض ، وحدقت فى ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم ، فعلمت أنه حقيقة لن يتكلم . وقد وجدت ملاحظ « النقطة » غارقاً لأذنيه فى تحرير « محضره » الذى سأضرب به عرض الحائط ؛ فالنيابة متى حضرت بحثت كل شىء من جديد . وباشرنا التحقيق مفتتحين بمحضر المعاينة ، فأمسك الكاتب ورقة وقلما ودنا منى فأمليت عليه الديباجة المعروفة : « نحن فلان وكيل النيابة ومعنا فلان كاتب التحقيق . الليلة الساعة كذا وردت إلينا الاشارة التليفونية رقم كذا ونصها كذا . وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا ، فبلغناها ساعة افتتاح هذا المحضر الخ الخ . » ذلك أنى أحب دائماً أن أعنى بتحرير « محضرى » وأن أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً . والمحضر هو كل شىء فى نظر أولى الأمر . وهو وحده الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة . أما ضبط الجانى فأمر لا يسأل عنه أحد . ويلى « الديباجة » وصف الأصابة والملابس والموضع الذى وجد فيه المجنى عليه فما قصرنا . وأمليت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى رأينا ثقبه المتسع فى كتف المصاب . وقد حدث فيما أرى من « حشار » بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم . وقد وصفنا الوجه خير وصف . وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم : تلك الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . ولم يفتنا ذكر وشم العصفور المرسوم فى أعلى صدغه ، ولا لون شاربه الضارب إلى الصفرة ، والثياب أحصيناها من « الدفية » والجلباب الغزلى وكيس النقود الذى لم يمس ، إلى السروال « البفتة » الأبيض ذى التكة الحمراء . نعم ، لم ننس تكة اللباس ونوع نسيجها ، فان ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية . هكذا تعلمنا التحقيق كابرا عن كابر ! وأذكر أنى تركت ذات مرة جريحاً يعالج سكرات الموت ، وجعلت أصف سرواله وتكته و « بلغته » و « لبدته » ، فلما فرغت انحنيت على المصاب أسأله عن المعتدى عليه ، فاذا بالمصاب قد توفى . ولم ننس وصف المكان ، وهو طريق ضيق بين مزارع قصب على الجانبين . ولا عجب ، فان لكل نوع من الزرع محصوله من الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم « القتل بالعيار » ، ومع اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجاز والقوالح » ، ومع اخضرار القطن يكثر « التقليع والأتلاف » . وانتهينا من الجريح المحتضر ، ولم يعد يهمنا أمره بعد أن ملأنا « محضرنا » بأوصافه ؛ فتركناه فى ذمة تحت رعاية ضابط « النقطة » حتى يأتى لحمله إلى المستشفى رجال الأسعاف . وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث كانت فى انتظارنا القهوة . وآه من قهوة « العمد ! » إنى أسميها دائما « الكلوروفرم » ؛ فما من مرة

إلا أحدثت عندى عكس المقصود من شربها ! ولست أدرى العلة ؛ غير أنى سمعت ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصيح فى تابعه أمامنا : « هات يا ولد قهوة بن » ، ولم أفهم وقتذاك معنى لأضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ! أترى النص على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل التشريف والتكريم ؟ لست أعلم . إنما الذى علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل فى تركيب الجملة ، لم يدخل فى تركيب القهوة . وجلسنا فى « المنظرة » على فرش من قطيفة ذهب وبرها ولونها ؛ ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى وطنين قد جمع حوله هوام الليل ؛ وصحت : أطلب الشهود . فصاح المأمور لصباحى : « اجمع الشهود يا حضرة المعاون » . وارتمى على مقعد رحب فى ركن الحجرة ارتماءة أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس وغطيط . وجلس مساعدى على مقربة منى يرمق ما يجرى بعيون فاترة تنم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق . وجاءونى بالخفير النظامى الذى سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظنى فى شىء إلا فى قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد فى « الأشارة » عيار واحد ، والأصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدو فى القرية سوى عيار واحد . ما حظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدرى . وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين : عيار واحد يا سعادة البك

— سمعت يا خفير ...

— عيارين يا سعادة البك

— متأكد ؟

— عيارين يا سعادة البك

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب المتهم ، فهو حقه الطبيعى ؛ وما أطمع قط أن يَصْدُقنى متهم . ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يأتى على وجه الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى ... ؟

ومضى التحقيق فى شعاب مظلمة لا أمل معها فى الوصول إلى شىء . فما من أحد يعرف الجانى ؛ وما من أحد يتهم أحداً ؛ وما من أهل المضروب فى هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام ، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلا صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا فى موقف السؤال . وما من أحد يدلى بتعليل معقول أو غير معقول لهذا الحادث . وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة . أهَبط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار ؟ لا أحد يدرى . لقد وجدت ما حسبت . إنى منذ قرأت « الأشارة » أدركت أن القضية ميتة . وهل أستطيع أنا « بتحقيق » أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل علىّ الشهود بالصدق ، وتعاونى الأهالى بالرغبة والاخلاص ، فأى « محضر » فى الوجود يوصلنى إلى التشرف مرة بمعرفة جان من الجناة ؟ وجاءت نوبة العمدة فى الشهادة ، وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التى لا تقدم ولا تؤخر ... وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجرة ويغطى على التحقيق . فالتفتُّ فاذا المأمور قد « كوع » على « الكنبة » ؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة منى ، فاستأذنى واتجه إلى

المأمور وأيقظه فى لطف :

— تفضل يا بك على السرير فى القاعة

وقاده فى أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية .

ثم عاد أمامى يدلى بما عنده من أقوال رسمية «تجارية» قد دمغت بطابع الوظيفة ؛ ألفاظها وعباراتها تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر . وهى على كل حال لا تنفع ولا تضر ، وتاقى على نار الحادث برداً وسلاماً .

ولم يكد حضرة العمدة يوقع بامضائه الذى يضاهى نبش الدجاج تحت أقواله ، ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصابعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغى ويزبد :

— سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة أنت ...؟

فعلمت ما حدث بالتمام . وضحكت فى نفسى . وتظاهرت بالانهماك فى عملى فلم أرفع وجهى عن الأوراق . وجلس المأمور فى مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة .

ولم يلبث أن صاح فى العمدة :

— هات قهوة والسلام . اعملها موزونة وحياة عينيك

ثم وجه الىّ الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :

— القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ، ومدى نجاحها النجاح الذى يؤهلها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة . فأجبته فى صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه وكأنى أخاطب نفسى :

— القضية على السرير !

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السر وصاح :

— يا شيخ عصفور :

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسى من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول : « لبيك »

— رأيك يا شيخ عصفور ؟

فلم أطق صبرا . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين فى قضايا الجنايات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقترب منى وقال :

— الشيخ عصفور كله بركة . مرة دلنا على بندقية متهم مدفونة فى قاع الترعة !

— يا حضرة المأمور بدلا من سؤال الشيخ عصفور والشيخ طرطور كلف خاطرك وانتقل مع المعاون والعساكر وفتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالى

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون !

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولى ، وقدم إلى رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :

— أجرينا التفتيش يا فندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولنى إياه ، فجريت ببصرى على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة : « . . . ولم نعثر على شىء من الأسلحة أو الممنوعات . . »

فأشرت فى ذيل الورقة : « يرفق بالمحضر » ، ووضعت رأسى فى كفى أفكر فيما ينبغى عمله فى هذه القضية ، وفيمن ينبغى سؤالهم حتى نكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل . ذلك أنى ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوماً لى وقد تناول محضرا فى عشر صفحات :

« مخالفة ؟ جنحة ؟ » فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهشاً : « قضية قتل تحقق فى عشر صفحات فقط ؟ قتل ! قتل رجل ! قتل نفس آدمية فى عشر صفحات ؟ ! » فلما قلت له : « وإذا ضبطنا الجانى بهذه الصفحات القليلة » لم يعبأ بقولى ومضى يزن المحضر فى ميزان كفه الدقيق : « من يصدق أن هذا محضر قتل رجل ؟ ! » فقلت له على الفور : « إن شاء الله فى المرة القادمة نراعى الوزن ! »

مرّ بخاطرى كل هذا وأنا مطرق صامت ... وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع فى القاعة منشداً :

« فتش عن النسوان ،
تعرف سبب الاحزان ،
ورمش عين الحبيبة ،
يفرش على فدان . . . »

لم أغضب على الشيخ الذى امتهن حرمة التحقيق بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنى تفكرت قليلا فى مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعنى . . . . كل ما يجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إنى لم أر قضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش وحيدا بعد أن ماتت زوجته ، ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء لا ينبغى أن تحسب فى النساء . لا ريب أن هذا العصفور لا يعقل ما يقول . هذا الشيخ الأخضر من فصيلة الببغاء لا شك ، يردد الألفاظ والأغانى دون أن يعنى بها شيئاً من الأشياء . لكن مهلا ! إن للمجنى عليه طفلا . فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأنه ؟ « تعال يا عمدة ... » وألقيت على العمدة هذا السؤال :

فأجاب فى براءة الطفل وسذاجة الأبله :

— الولد فى حضن البنت !

— أى بنت ؟

— البنت ، أخت المرحومة امراته

— بنت كبيرة ؟

— « عيِّلة »

فنظرت إلى المعاون وأمرته أن يحضر هذه البنت فى الحال . ولم يمض قليل حتى بدت عادة فى السادسة عشرة من عمرها ، لم تر عينى منذ وجودى فى الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قدا ؛ وقفت بعتبة الباب فى لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت فى موضع الوجه بالعاج . وقال لها العمدة مشجعاً :

— ادخلى يا « عروسة »

فتقدمت فى حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين يدى مَنْ من الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة إلىّ فوقفت فى وجهى ورفعت إلىّ رمشين ... ولأول مرة يرتج علىّ فى « التحقيق » فلم أدر كيف أسألها . . . ولم يرها الكاتب ، فقد كان موقفها خلف ظهره . فلما لحظ صمتى ظن بى تعباً ، فغمس القلم فى الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسألها :

— اسمك يا بنت ...؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق . ونظرت حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينيه الواسعتين ؛ ونقلت بصرى إلى المأمور فاذا به الساعة فى غير حاجة إلى قهوة ولا إلى بن ؛ وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطئ قدمى فأقعى كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فاغرا فاه . حقاً إن للجمال

لهيبة ... ورأيت أن أملك سريعاً ناصية نفسى قبل أن ينكشف الأمر . فقلت لصاحبة الجمال وأنا أكبح عينى حتى لا أنظر إليها :

— اسمك ؟

— ريم

لفظته فى صوت ... هز نفسى كما تهز الوتر أنامل رقيقة ، فما شككت فى أن صوتى سيتهدج إن ألقيت عليها سؤالا آخر ، فتريثت ؛ وبدت لى دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لى أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال . فاستجمعت ما بقى عندى من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة ، وقلت لها تكلمى فى كل هذا ... ولبثت أنظر ، فعلمت منها العجب العجاب : إنها حتى الآن لا تعلم ما جرى للمجنى عليه : فقد أيقظوها من النوم الساعة وجاءوا بها أمامى دون أن يذكروا لها شيئاً ؛ ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنست منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الأحساس ...

سألتها : ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى ؛ آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكن زوج أختها وهو فى مقام وليها تردد فى القبول كما تردد دائما فى قبول الأيدى الكثيرة التى ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدى المؤمنين بالدعاء ! . . . . « أو تحقدين عليه من أجل هذا ؟ » . فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها فى نبرة حارة ؛ حرارة خاصة أدركتها كذلك بأحساسى . « وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » . نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين فى لقاء بريء . وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً ، ولكنها تكره مخالفة وليها . وذلك الولى ما غايته من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غلو منه فى الحرص على هنائها ؟ أهو لا يجد الزوج الكفء ؟ إنها لا تعلم حقيقة سره . وإنها تريد أن تعلم . وإن هذا ما يحيرها أحياناً ، وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . ؟ ... لا شيء . لا تستطيع التعبير ... إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس

وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض فى أعماق النفس ... وهذه الفتاة فيما يخيل إلىّ ذات نفس كدغل « البوص والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كالدنانير تتراقص فى ظلام القاع كلما تمايل القصب ...

على أى حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور « المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية ، وهممت أن أطلب فنجاناً آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحلا التحقيق . وإذا المعاون يسأل ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب :

— أحضر الأسعاف ونقل المضروب ؟

— من زمان !

فأدركت الصبية كل شيء ، فانطلقت من فمها صيحة كتمتها فى الحال خجلا منا ؛ غير أنى ما شككت فى أنها دويا وانفجارا داخل نفسها . وأردت أن أمضى فى عملى فما وجدت أمامى غير فتاة تجيبنى بكلام أبتر لا شبع فيه ولا غنى . ورأيت أن أرجئ التحقيق فقلت :

— استريحى ياريم ...

ونظرت إلى المأمور :

— الأحسن أن نكمل التحقيق الصبح

فأشار إلى النافذة ، فاذا النهار يدخل منها متلصصا . وقد خدعنى عنه المصباح المضيء .

فاستويت على قدمى إذ ذكرت للفور أن جلسة الجنح اليوم ، وقد فاتنى أن أدبر الأمر من الليل حتى يخلفنى فيها نائب من الزملاء ؛ فلا مفر لى إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة فى الميعاد .

— يا حضرة المعاون : هات البنت فى « البوكس » ! ...

واتفقنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة فى دار النيابة . وقمنا إلى « الركايب » فامتطيناها عائدين .. والشيخ عصفور خلفنا يصيح ويلوح بعوده الأخضر فى حركات الثائر المهتاج :

— هى بعينها !

والمأمور يجيبه :

— اعقل ...

— هى بعينها . رمشها .. عرفتها . رمشها .

— اعقل يا شيخ عصفور . وافطن لنفسك ، تقع من فوق الجحش !

ودب التعب فى عظامى فانحنيت على ظهر الحصان ، ولكن نسيم الصبح الرطب كان يضرب وجهى ضربات خفيفة كأنها لطمات مروحة فى يد ماجنة ظريفة . فلم أفقد نشاطى وطفقت أفكر ، وإذا غناء العصفور يرتفع بغتة شديداً كأنه شىء قد انخلع مع قلبه :

— ورمش عينها يفرش ..

ولم أسمع البقية . بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألفينا الشيخ عصفور بأطماره على الأرض قد فرش ... فوقفنا . وأسرع إليه الخفراء فحملوه إلى حماره ، فاستوى عليه وهو ينفض عن جسمه التراب صائحاً مستأنفاً :

— ... على قدام ..

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافيا .

ثم سمعت المأمور ينتهر المعتوه قائلا له : « افطن لنفسك . صاحبتك غرقت فى الرياح من سنتين ... »

ولم يكن فى عقلى وقتئذ غير صورة الفتاة فى إطارها الأسود وسرها الذى لم أنفذ إليه بعد . إن سرها هو سر القضية . وإنى لتدفعنى إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل . إنى أيضاً أريد أن أعلم .

وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً متسعاً عميقاً زاخراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل فى عرض الذراع . وأراد الخفير أن يدفع فى تحيز حصانى ليجتاز بى المصرف على هذه الخشبة التى فى ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

— أنت مجنون يا خفير ... أمرّ من هنا أنا والحصان !

فبدت على وجه الرجل دهشة :

— سبق لك يا سعادة (البك) المرور من هنا بالليل أنت والحصان

فنظرت إلى الخشبة فى شبه رعب :

— أنا ! عديت بالليل المصرف من هنا على هذه الخشبة ؟ وكنت وقتها فوق الحصان ؟ مستحيل !

— الطريق واسع يا بك والحصان عاقل ...

ولم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك . فإذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً فى نظر هذا الرجل فهو من غير شك سيجتاز الصراط فى الآخرة راكباً جملا . أما عقل الحصان فمن ضمنه هو ، وهو ليس راكبه ، فما يحملنى أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة ؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ماشياً على قدمى فوق الخشبة ، معتمداً على عصاى ...

(يتبع) توفيق الحكيم